

"أين ذهبت كل الأخبار السارة؟"

فضلو خوري

خطاب تخرّج كليات الطب والتمريض والصحة العامة في الجامعة الأميركية في بيروت
حزيران (٢٠٢١)

في فترات الاضطراب أو التغيير التاريخي الكبير، من المعروف أن الأخبار السيئة غالباً ما تهيمن على مجال الأخبار. وهذا ينطبق على حقبات جائحة كوفيد عالمياً وعلى الانهيار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي العميق في لبنان. وحتى استخدام التكنولوجيا العلمية المذهلة إلى جانب الإدارة والموارد الطموحة، والذي أدى إلى تطوير فائق السرعة للقاحات جديدة ضد هذا الفيروس الفتاك وإلى التوافر المتزايد للعديد من اللقاحات المعدلة وراثياً والفعالة للغاية، قد قوبل بالكثير من الصخب والغضب. "المحظون يحصلون على الكثير من اللقاحات!" تتردد المقولة والصيحة في الولايات المتحدة، وأوروبا، والعالم المتقدم، وجنوب الكرة الأرضية، ونعم في لبنان بالطبع.

صحيح أنه تم إعطاء عدد مفرط بشكل غير متناسب من جرعات اللقاح في البلدان الأكثر ثراءً (١) ولكن يمكن للمرء أيضاً أن يسوق أن هذه "القلة" المتميزة هي الكوكبة الأولى خارج التجارب السريرية التي تختبر عليها على المدى القصير والمتوسط والبعيد، تأثيرات لقاحات الحمض النووي الريبيوزي المرسل. ونعم، يبدو أن بعض اللقاحات، لا سيما تلك التي تعتمد على تقنية الفيروسات الغدية، مرتبطة بنشوء جلطات الدم الانتقائية المترافقة مع أعراض في الجهاز العصبي المركزي. ومع ذلك، إذا تم وزن احتمالات الإصابة بتجلط خطير في الدماغ أو حوله، مقابل خطر الإصابة بجلطات تهدد الحياة بسبب الفيروس نفسه، فإن احتساب المخاطر والفوائد ينجح بقوة إلى وجوب أخذ أي لقاح فور توفّره للفرد (٢). وهناك عدد كبير من اللقاحات الجديدة العالية الفعالية، وهو أمر لم يُذاع كما يجب أو أعلن عنه بشكل أقل تكراراً، أو جهاراً، مما ينبغي.

على العكس من ذلك، وللأسف. يُظهر أحدث تحليل للوارد من الأنباء (٣) المتعلقة باللقاحات أن تغطيتها الاخبارية تنجح بشكل كبير نحو إبراز عدم توفرها، وآثارها الجانبية المحتملة، والتفاوت بين الدول الصناعية المتقدمة التي تمكّنت من الحصول على كميات كبيرة من هذه اللقاحات، والدول في جنوب الكرة الأرضية، حيث لا يزال التلقيح أصعب التيسر بكثير، والموارد أكثر إنهاكاً. وقد ظهر ذلك جلياً عندما انحدرت الهند، أكبر منتج للقاحات في العالم مؤخراً إلى ما قد يكون مصدر أكثر موجات الجائحة فتكاً منذ بدايتها.

بخلاف تغطية الأعمال البطولية لمقدمي العناية الصحية أثناء الطفرات المختلفة، ما الذي تم تداوله أيضاً في الأخبار مؤخراً؟ مواجهات مدمرة نجمت عن اختلالات ساحقة في توازن القوة، ونعم، نقص صارخ في المساواة في الحقوق الإنسانية والمدنية وحقوق المواطنة الأساسية. كذلك غياب صارخ للعدالة الاجتماعية وانعدام واضح للتعاطف. وتؤدي القيادة المتوحشة التي يتعذر فهمها إلى تفاقم العنف وانعدام الأمن لدى قطاعات كبيرة من البشر. وفي هذا الجو اللاذع، والتمهك، والعدائي، فهل من المستغرب أن تنهار الثقة في القيادة إلى أدنى مستوى لها منذ عدة عقود؟ أضف إلى ذلك الابتعاد عن فكرة اللقاح المتوقّر دائماً والتي ترسّخت أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها (٤) ونرى عالماً على حافة الهاوية إلى المواجهة، غارقاً في الخوف ومستعداً لتصديق أي خبر سيئ، ويرى كل الدوافع شريرة، سواء كانت الأخبار موثقة ومنقولة بشكل صحيح، أو تم اختراعها ونشرها على نطاق واسع على وسائل التواصل الاجتماعي!

ربما دروس التاريخ لم تترسخ بشكل جيد كما قد يأمل المرء. قد يكون هذا صحيحاً فعلاً، وهذا يصبح رأيي بشكل مضطرد، أننا نتوقع الكثير من قادتنا الموغلين في كونهم بشراً. أدرك أن هذا سيبدو غير صائب للكثيرين، ولديكم الحق في أن تتوقعوا من قادتكم المنتخبين والمعيّنين الوفاء بالتزاماتهم، ليس فقط بوضع معايير أخلاقية رفيعة، ولكن أيضاً بالتزاماتهم تجاه الأشخاص ذاتهم الذين أقسموا على رعايتهم وحمايتهم، والمؤسسات والدساتير عينها التي تعهدوا بالحفاظ عليها. إن العالم يحب أن يكون قاداته نزيهين ومتواضعين وحكماء ونعم أنقياء. لسوء الحظ، إذا نظر المرء إلى ما أبعد من أنبياء الإله الواحد الرئيسيين، وإلى بعض الأمثلة الأخرى المدهشة لرجال ونساء عظماء قادوا بفعالية وإنسانية وتواضع وحكمة، والذين يجتازون بتفوق اختبار الشخصية، نجد أن هذه الأمثلة نادرة. إن السلوك المستهجن أخلاقياً، والطموح المفرط، والشعور الساحق بانعدام الأمان، لم تمنع أيّاً من أصحابها من امتلاك تأثير تاريخي هائل، وربما قد تكون مكنتهم بالفعل من القيام بما قاموا به.

خذوا على سبيل المثال أوتو فون بسمارك، رجل الدولة في القرن التاسع عشر وأول مستشار (رئيس) ألماني والذي وضع المؤرخ البارز جوناثان شتاينبرغ سيرته المثيرة والمتقنة بحثاً والأكثر مبيعاً بعنوان "بسمارك: حياة" (٥) لقد كتب الكثير عن حروب بسمارك، وتوحيد ألمانيا وتطور السياسة الواقعية، والتمكين المذهل للملكية المطلقة. بالمقابل، لم نسمع سوى القليل عن إقامة أول شبكة أمان اجتماعي تحت رعاية بسمارك وهو مشروع انضم إليه بالكامل جد عضو مجاس أمننا ألكساندر إركليتنر. كذلك لم نسمع سوى القليل عن منح حق الاقتراع العام في ألمانيا وذلك قبل دول أوروبية أخرى بوقت طويل، وهذه معركة لم تُحسم تماماً بعد في الولايات المتحدة، حيث تتعرض حقوق الناخبين مجدداً للخطر. كذلك لم نسمع إلا القليل عن تطوير البوندستاغ الذي ضمّ ممثلين عن مختلف الممالك والإمارات والدوقيات في ألمانيا. هذه الخطوات العملاقة لم تكن محط

تركيز شتاينبرغ على الزوايا البارزة في حياة رجل يعتبره معظم المؤرخين أكثر رجال الدولة نفوذاً وربما أعظمهم على الإطلاق في القرن التاسع عشر، على الرغم من عيوبه الواضحة. لكن أبطال كتاب شتاينبرغ ليسوا فقط المستشار الحديدي نفسه، بل أيضاً العديد من الشخصيات البشرية الغنية والمعقدة ونعم البشرية جداً والتي تعيش في قصة بسمارك وتجعلها ممكنة. وتجعل عالمه، وفي النهاية عالمنا، ممكناً.

وهنا تكمن العديد من الدروس التي لا ندركها دائماً. يمكن أن تتوافق الحياة مع مريثة مكبث المظلمة اليانسة، عند علمه بانتحار زوجته، شريكته في المؤامرة وفي الحياة، "قصة مليئة بالضجيج والغضب، يرويها أحق، لا تعني شيئاً" (٦) ولكنها غالباً ما تكون نسيجاً غنياً من الألوان المعطوبة، من البشر الذين ينهضون ويسقطون، وأحياناً ينهضون مرة أخرى، لإحداث فرق حتى وهم يكافحون نقاط ضعفهم، ولكن بطريقة ما، يتغلبون عليها. تحكي لنا السيرة الذاتية لنساء ورجال عظام قصصهم، ولكن هناك في الخلفية أبطال وأشعار ومساهمون ومنتقدون، متوارون إلى حد كبير عن الأنظار حتى يقوم المرء بتعديل نظره. المعالجون الكبار والبحاث والعلماء والكتّاب والفنانين وعلماء المعرفة والفلاسفة والمهندسون والموسيقيون والذين هم خارج التركيز قليلاً في قصص الأساطير، لكن كلماتهم وأفعالهم الحقيقية تُحدث فرقاً يومياً، في كثير من الأحيان فرقاً للأفضل. إنهم أفراد مثل الزوجين التركييين الألمانين أوغور شاهين وأوزلم تورينشي اللذين اخترعا تقنية الحمض النووي الريبوزي المرسال التي ساعدتنا على تلقيح وإنقاذ العديد من الأرواح (٧). وبالفعل، أفراد في مجتمعنا في الجامعة الأميركية في بيروت، الذين هم أكثر من أن يُنصفوا هنا، ولكنهم يشملون خريجنا اللامع والمتفاني، بشارة شقير (٨)، الذي قاد حملة التلقيح الوطنية الأميركية الرائعة للرئيس بايدن، والتي ستسمح للولايات المتحدة بالخروج من وضع الإغلاق بحلول ٤ تموز ٢٠٢١ والتي تحطّط لشحن لقاحات لتحصين الملايين في جنوب الكرة الأرضية. وأقرب إلى الوطن هناك نهاد ضومط، غلاديس حنين، إيمان نويهض، نجاه صليبيا، لينا داعوق إوبري، ألان عون، ريم كرامي، شارلوت كرم، كارمن جحا، وغيرهم، أبطال ساعدوا في إطلاق "خضّة بيروت" وخدماتها الملهمة والمؤكدة للحياة، للمرضى والسكان في منطقة الكرنيتينا المدمرة في بيروت (٩). أو كارين صقر وندى ملحم وماركو باردوس وسهي كنج شرارة من لجنة خبراء كوفيد-١٩ الذين أعطوا الأولوية بلا كلل لسلامة أسرنا قبل الجميع. أو علي أبو ألفا، وهو نموذج يُحتذى به في العصر الحديث بدير برنامج حماية البحوث البشرية (١٠) لتمكين جحافل من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت من إجراء تحقيقات لتغيير الممارسات، وكل ذلك أثناء نشر الأبحاث السريرية، وتوجيه الأطباء والمرضات الشباب، وإنقاذ حياة مرضى الفشل الكلوي الحاد، شخص واحد. مريض واحد. في كل مرة.

لذا في المرة القادمة التي تشعرون فيها باليأس أثناء قراءة الأخبار، مثقلة بالإستثارة بدلاً من أن ترفعها العقلانية، فكروا جيداً فيما يمكنكم فعله لجلب الأخبار السارة إلى العالم. للتأكد من أنه، كما في كلمات روبرت كينيدي الخالدة، عليكم أن تعتبروا أنفسكم من بين القلة الثمينة التي يمكنها أن تقول بصدق: "يرى البعض الأشياء كما هي ويسألون لماذا. أرى أشياء لم تكن موجودة من قبل وأسأل لماذا." من خلال الإصرار على تشكيل وخدمة عالم أفضل وأكثر إنصافاً وشمولاً وأكثر تفاعلاً، يمكنكم الإجابة على السؤال أين ذهبت الأخبار السارة لأنكم أنتم، يا صفت متخرّجي العام ٢٠٢١ في الجامعة الأميركية في بيروت، أنتم أخبارنا السارة. أنتم الأخبار السارة بعالم أفضل.

المراجع

- ١ - رئيس منظمة الصحة العالمية ينتقد الانقسام "الصادم" حول اللقاح، بي بي سي، ١٠ نيسان ٢٠٢١
<https://www.bbc.com/news/world-56698854>
- ٢ - المجلة الطبية البريطانية، كوفيد-١٩: دراسة تبيّن أن خطر جلطات الدم الدماغية من المرض أكبر بعشر مرات من خطرهما بسبب اللقاح، ١٦ نيسان ٢٠٢١
<https://www.bmj.com/content/373/bmj.n1005>
- ٣ - بروس سكر دوت، رانجان سهغال، مولي كوك، لماذا كل أخبار لقاح كوفيد-١٩ سيئة؟ المكتب الوطني للأبحاث الاقتصادية، ٢٢ آذار ٢٠٢١
<https://www.nber.org/papers/w28110>
- ٤ - كيف أطلقت الحرب العالمية الثانية والجيش الأميركي فكرة تجديد اللقاحات، بيزنس انسايدر، شباط ٢٠١٨
<https://www.businessinsider.com/how-world-war-ii-and-the-us-army-spurred-vaccine-innovation-2018-2>
- ٥ - جونانان شتاينبرغ: "بسمارك: حياة"، منشورات جامعة أوكسفورد، ٢٠١١
- ٦ - "مأساة مكبت"، وليام شيكسبير، ١٦٠٦
- ٧ - صفحة قيادة بيونتك
<https://biontech.de/our-dna/leadership>
- ٨ - رحلة خريج الجامعة الأميركية في بيروت الدكتور بشارة شقير إلى أحد أصعب الوظائف في واشنطن، مكتب الاعلام في الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٣ شباط ٢٠٢١
<https://www.aub.edu.lb/articles/Pages/Bechara-Choucair-US-COVID-19-vaccine-coordinator.aspx>
- ٩ - أفراد خصة بيروت
<https://khadditbeirut.com/people>
- ١٠ - برنامج حماية الأبحاث البشرية ومجلس المراجعات المؤسستاتي
<https://www.aub.edu.lb/irb/Pages/default.aspx>